إضاءة أولى على رحيل رجل القانون الأول في اليمن:

المستشار حسين الحبيشي وقطار الرماد اليمني

المهندس : محمود إبراهيم الصغيري

1- لمحة عن المولد وعهد الصبا:

في مدينة الشيخ عثمان بمحافظة عدن (مستعمرة عدن في حينه) ولد الأستاذ المستشار حسين علي الحبيشي يوم الجمعة ١٩٢٧/٣/٤م- الذي يوافق حسابياً لدينا ٢٩ شعبان ١٣٤٥هـ- وفقاً لـ((وثيقة السجل البريطاني)) أو ١٩٢٨/٨/١٨م- الموافق حسابياً ١١ ربيع أول ١٣٤٧هـ- بحسب ((وثيقة الشهادة المدرسية))- وقد اختار الراحل العظيم- كما يذكر في الصفحة (١٩) من الجزء الأول من مذكراته المدهشة بعنوان ((محطات حياتي)) التأريخ الثاني المذكور سابقاً ليكون العام ١٩٢٨م هو عام مولده المقرر في عناوين سيرته الذاتية.

وفي حوالي العام ٢٠٠٢م- وقد بلغ العم حسين الحبيشي حوالي الخامسة والسبعين من عمره- كما سجل عن ((نشأته وعهد صباه)) في الصفحة (٢٢) من الجزء الأول من سيرته الذاتية ((محطات حياتي)) ما يلي:

((كثير من الناس يمجدون عهد الصبا أما بالنسبة لي فقد كان عهد السأم ثم الحرمان من بعض النواحي كما كان عهد التجربة والفرحة أو السليان من مناحي أُخر)) ثم يتابع في الصفحة المذكورة السابقة عن المنزل أو البيت الذي كان من ((غرفة للنوم في الشتاء)) وساحة ((دارة)) لكل شيء ، بشراً وأيضاً حيوانات أليفة (من دواجن ونحوها).

وفي عام ٢٠٠٧م عندما سجل صفحات الجزء الثاني من سيرته الذاتية بعنوان ((حط الرحال: من محطات حياتي)) أجمل في الصفحة (٣٢٣) مرحلة طفولته بلغة فلسفية عميقة حين كتب:

((لقد كانت طفولتي شيخوخة والآن- (وهو على مدخل الثمانين من عمره)- أجاهد لكي لا تكون شيخوختي طفولة)). وما بين يوم مولده استناداً إلى المدون في ((المَخْلَقَة))- وثيقة الميلاد في السجل البريطاني- وهو ١٩٢٧/٣/٤م من جهة ويوم ١٩٤٧/١٢/٣١م من جهة أخرى أمضى المعلم الأول للقانون الحديث في اليمن نحو من عشرين عاماً في مدارس مدينة الشيخ عثمان (التابعة لمستعمرة عدن). وعلى الرغم من أنه حاز تعليماً جيداً باللغتين (العربية والانجليزية) إلا أنه اكتشف بعد سنوات من يوم سفره من عدن إلى القاهرة- الذي حدث في اليوم الأول من الشهر الأول من العام ١٩٤٨م- أنَّ ((العالم)) الذي كان يدركه في العشرين السنة من حياته كان محدوداً إن لم يكن قاصراً..

وفي الصفحة (٨٤) من الجزء الأول من سيرته الذاتية (محطات حياتي) يقول:

((وأنا في الشيخ عثمان لم أعرف من العالم سوى مدينة الشيخ عثمان وزيارات متقطعة لكريتر والمُعَلا والتواهي وفقم وضواحيها ثم حوطة لحج)).

وفي الإعتقاد أنَّ هذا الاكتشاف((المرير)) عن العشرين سنة الأولى من حياته كان سبباً رئيسياً في نشأة ثم بلورة ((ميله العميق والشديد)) نحو ((السفر)) إلى جهات الأرض الأربع من جهة و((التبحر المتنوع في المؤلفات عن تواريخ الشعوب وثقافاتها.. وأيضاً فنونها)) من جهة أخرى.

نعم . حين تعيش في بيئة محدودة التصور عن العالم حتى العقد الثاني من عمرك ثم تخرج إلى بيئة واسعة وغنية في تعليمها وأشكال معارفها وكذلك بليغ حراكها السياسي والاجتماعي فإنَّ ((الدافعة)) نحو السفر وأيضاً المؤلفات لا تتوقف في العقود التالية من حياتك كافة - وكل من ((السفر)) و((المُصَنَّفات الكتابية والفنية)) إنْ حرصت على نموهما الدائم فيك إنجلى في كل إنسان ما كان عليه العم المستشار حسين بن علي الحبيشي : أفق واسع للمعارف والضمير القابل لـ((الآخر)) مهما كانت مكانته أو معتقداته شريطة أن يكون مُحَصَّناً من مساوئ اللسان وخطايا الأيادي .

وفي سيرته الذاتية بجزأيها (محطات حياتي-٢٠٠٤) و(حط الرحال-٢٠٠٨) معارف عميقة وغنية عن المدن التي عاشها والأفكار التي جلاها والبشر الذين صاحبوه أو صاحبهم . إنك لتقرأ وخاصة في الجزء الثاني من سيرته الذاتية مصنفاً من أهم المذكرات المكتوبة باللغة العربية- ثقافةً وفلسفة ولمحات ثاقبة عن الحياة والبشر. وكم من قيادات وحكام وأسماء عاشت عقوداً في السياسة والحياة العامة لعقود طويلة ثم حين تقرأ ما نشروه تذهل من ضحالة معارفهم وقاصر ثقافتهم وبلادة عباراتهم.

2- محطة القاهرة: (1948-1955)م: الثانوية والحقوق:

في النصف الثاني من شهر يناير/كانون الثاني من عام ١٩٤٨م وصل الأستاذ حسين الحبيشي مع ثلاثة آخرين من زملائه إلى القاهرة بعد أن غادروا مدينة عدن بحراً في يوم ١٩٤٨/١/١م . وفي الجزء الأول من سيرته الذاتية (محطات حياتي) أضاء صاحبها مرحلةً خافية من أهم مراحل تعليم جيل الإستنارة الرائد في تاريخ اليمن المعاصر. وهو جيل لم يتوفر له باحث أكاديمي حتى اليوم لدراسته ؛ وكم نتمنى على الصديق والأستاذ د. سيد مصطفى سالم أن يوجه طالباً أو أكثر من طلابه وطالباته في الدراسات العليا الجامعية ليتصدى لهذه المهمة الغالية- بدءاً من البعثة الشهيرة ((بعثة الأربعين)) وما بعدها. وبهذه المناسبة لا يفوتنا أن نقول لكل أهل المعرفة والمعروف في اليمن إياكم أن نسمح لأحد في الديار اليمنية نسيان أو تناسي أفضال هذا المؤرخ اليمني المصري العملاق د. سيد مصطفى سالم . فمن يسمح بنسيان معروف وأفضال العارفين أزال الله - وكذلك الناس من بعده - كل فضل له أو معروف كان منه.

في الصفحة (١١٧) من الجزء الأول المذكور سابقاً وما تلاها طاف الأستاذ حسين الحبيشي بقلمه الرشيق والوجيز حول ((بعثة الأربعين طالباً يمنياً)) الذين كانوا قد أرسلوا إلى المقاصد الخيرية في لبنان ثم ((بعد سنة دراسية نقلوا إلى بني سويف ثم حلوان في مصر)). وأصبحت البعثة اليمنية التعليمية بعد انضمام الأستاذ الحبيشي وزملائه الثلاثة أربعة وأربعين طالباً . وفي الصفحة (١١٨)) سرد العم حسين الحبيشي أسماء مجموعات يمنية كانت أيضاً مرافقة في تعليمها للبعثة الشهيرة وهذه المجموعات اليمنية التعليمية هي :

((مجموعة الاتحاد اليمني)) و((مجموعة البعثات الرسمية الجنوبية)) و((مجموعة لحج)) و((مجموعة حضرموت)) ثم آخرين أضاف أسماءهم أو من نجح في تذكرهم في (محطات حياتي) . وكان ناظم حياة ذلكم الجيل الرائد كلهم ((طلب المعرفة)) من أجل مستقبل عظيم للديار اليمنية . وبلغة الأستاذ الحبيشي :

((كانت أوجاع الوطن وآلام الغربة تجمعهم وتوحدهم . وكم كنّا ونحن على سطح دار البعثة نعلق أو نحش على البعض في جو تغمره أشعة القمر)). ومن الناحية السلوكية كانوا جميعاً وبلا استثناء على ((قلب رجل واحد)) كما وصف العرب كل جمع آيته ((حب الآخر وبإخلاص)). كان ذلك الجيل الرائدً ومن أركان اليمن كافة ((يتقاسمون المأكل والمسكن حتى تأتي الموافقة بالقبول أو الضم للبعثة))- ويتطابق هذا الكلام للأستاذ الحبيشي مع ما كان المرحوم السفير محمد مانع قد رواه لي قبل سنوات حين كانوا ((يتناوبون على النوم في فراش واحد)) ومن غير أن تدركهم عيون المشرفين المصريين على البعثة التعليمية اليمنية. وفي العصر الحديث كثيراً ما كنّا نسمع عن الطلاب الفيتناميين في روسيا الذين كانوا في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي يقتسمون المبالغ المقررة لكل طالب منهم وبالمناصفة مع طالب فيتنامي آخر لم يكن تقرَّرت منحته المالية الدراسية.

ولعل أهل اليمن في أواخر أربعينيات القرن الماضي قد حازوا السبق في ((التكافل التعليمي)) حين تقاسموا منحتهم المالية وأيضاً أزالوا أي قيمة للراحة الشخصية من أجل ((الآخر- القرين)).

كانت مصر كما وجدها الأستاذ الحبيشي ((مدرسة لنا في شتى أنحاء الحياة الفكرية)). وخلال السنوات السبع وبضعة أشهر التي أمضاها راحلنا العظيم حاز الثانوية ثم إجازة (ليسانس) الحقوق من جامعة القاهرة - بعد أن سجل في بداية تعليمه الجامعي في كلية الطب بجامعة القاهرة التي لم يستمر فيها لأكثر من شهرين ((لأسباب بدنية هي ضعف النظر في المعمل وأسباب مشاعرية لتقززي من عمليات التشريح)) كما يقول في الصفحة (١٢٠) من الجزء المذكور من سيرته . وكان اختياره لكلية الحقوق بجامعة القاهرة بديلاً عن الطب:

((لأنَّ موادها أقرب إلى العلوم من حيث إخضاعها للمنطق والسبب والعلة..)). وهكذا من عام ١٩٥٥م كان عنوان محصوله القانوني حين تخرج في كلية حقوق القاهرة هو إدراك تخصصه في القانون من خلال ((فقه القانون وفلسفته)) وليس من خلال مواده وقواعده العامة منها أو الخاصة. ولعل مصدر نجاح القضايا القانونية التي تصدى لها أو أسهم فيها إنما يكمن في فهم ((عللها وأسبابها)). ولعلي أحد الذين تعلموا منه جدارة وتفوق أدلة ((الممارسة)) القانونية في قضية حنيش الدولية في النزاع اليمني - الإريتري على الرغم من أنني غير قانوني . ولكنه كان دائماً لا يتعب من شرح الفارق القانوني في علم المنطق بين الإستدلالين:الإستنباطي/Deduction والإستقرائي/Induction . ولأنه كان يعلم شيئاً من علاقتي بالهندسة كان يقول : إياك أن تبحث عن أدلة لشيء في رأسك سابقاً (هذا هو الإستنباط) بل نريد القضاة الدوليين من خلال البيانات التي تقدمها يستخلصون بالإستقراء ما هو المفيد لليمن . وللقصة هذه ملحق طويل عن الأدلة من خلال التاريخ البحري وأعلام الصوفية والخرائط والمطبوعات الإثيوبية والاريترية و... وفوقها جميعاً الحياة الإقتصادية للصيادين اليمنيين في جزر اليمن كافة.

3- محطة لندن (1955-1961)م:

حين تخرج في كلية الحقوق (بجامعة القاهرة) عام ١٩٥٥م كان عمره حوالي سبعة وعشرين عاماً وكان ممكناً أن يعود إلى عدن أو تعز أو صنعاء كما أشار في مذكراته . وكان هذا توجه غالبية الفائزين بالشهادة الجامعية ، ولكن أقدار الرجال غير متساوية وخاصة حين تكون قد تبلورت لديهم دافعة المعالي إلى المعارف (بالعلم وأيضاً بالسفر مهما كانت معضلات الطريق معلومها ومجهولها) . ولعله نفى في ذهنه أن يعود إلى اليمن- شطرها الأول ((معتل بالإمامة)) وشطرها الآخر ((محتل بالإستعمار)) بحسب كلام شاعر اليمن وشهيدها محمد محمود الزبيري الذي كان راحلنا الكبير حسين الحبيشي من الحريصين على زيارته في القاهرة.

وفي النصف الثاني من عام ١٩٥٥م بلغ إبن السابعة والعشرين من عمره مدينة لندن وطرق باب الدراسات العليا حين سجل في كلية الملك King's College)) بجامعة لندن . وصحيح أنَ الشهادة الجامعية المصرية كان معترفا بها في بريطانيا ولكن هذا الشاب اليماني أخضع لاختبار كتابة بحث قانوني لتسهيل ((قبوله)). وبوعي عميق بمشكلات وطنه اختار موضوع ((تقرير المصير)) ليؤكد تصديه لمستقبل الإستعمار البريطاني في الجنوب اليمني- راجع الصفحات من (١٤٩) وما بعدها عن ((شخصية لندن)) ثم ((الدراسة))- من الجزء الأول من سيرته الذاتية.

وفي أقل من سبع سنوات بين العامين : (١٩٥٥م-١٩٦١م) حاز الأستاذ حسين الحبيشي عدة دبلومات أكاديمية عالية وشهادات في الدراسات العليا المتعمقة في القانون من الجامعات البريطانية - راجع الصفحات بين (١٥٨-١٦٢) من الجزء الأول: (محطات حياتي). وتوازياً مع دراسته ((حرر مقالات أو بحوثاً)) وباللغة الإنجليزية عن ((الجنوب العربي والقانون وقناة السويس عام ١٩٥٦م ومن وحي التراث العربي في اسبانيا عام ١٩٥٩م والنزاع اليمني البريطاني)) إضافة إلى ((محاضرات منها ما ألقي في جامعة كمبردج..الخ))- راجع الصفحة (١٧٢) من الجزء المذكور.

وفي لندن كما يقول:

((كان محصول إهتماماتي أثناء الدراسة مواضيع القانون والثقافة العامة والتاريخ والسياسة))- الصفحة (١٦٢). وللترتيب السابق معانٍ مهمة لعل ذلك يكشف نهج حياته كلها حتى وفاتهً رحمه الله . أما كفاحه ليحوز المحصول الجليل من غربته في بريطانيا فلن يتجلى لنا إلا إذا تأملنا في ((نظام)) الحياة الذي أجبر فيه نفسه على أن يكون عنواناً من العناوين البارزة لفهم شخصيته في لندن كما كتب في الصفحة (١٦٠) من الجزء المذكور حيث يقول :

((في حياتي الخاصة كنت أسكن في غرفة متواضعة للراحة والمذاكرة والطهي والنوم ومن ثم كنت أقضي معظم الوقت في مكتبات الجامعة - (جامعة لندن-L.S.E)-) حتى الثالثة عصراً ثم أتجه للمفوضية- (اليمنية)- للقيام ببعض أعمال الترجمة والإدارة)).

وبعد غربة إلى مصر وبريطانيا استمرت نحو ثلاث عشرة سنة عاد الأستاذ حسين الحبيشي عام ١٩٦١ إلى عدن وهو في حوالي الثالثة والثلاثين من عمره حاملاً أعلى شهادات القانون الدولي الحديث في الديار اليمنية كلها . وأهم من الشهادات عاد رجلاً مليئاً بالقانون صارماً في نظام حياته ولكن بأفق واسع عن الحياة.

4- محطة عدن: (1961-1968)م : (كلية بلقيس):

وفي اعتقادي أن زيارة الأستاذ الكبير المرحوم أحمد محمد نعمان إلى بريطانيا في العام ١٩٦١م وعرضه على الأستاذ حسين الحبيشي رئاسة كلية بلقيس في عدن كانت سبباً في تفعيل رغبته للعودة إلى اليمن- على الرغم من أنه كان ((مصمماً على الذهاب إلى شمال الوطن))- كما أورد في الصفحة (١٨٢)/الجزء الأول من سيرته الذاتية . وكما عرف العم حسين وهو في لندن- ثم وهو في عدن و تعز - ((أنَّ هناك إتجاهين بين الأحرار))- حول مستقبل اليمن. ((اتجاه تبنّاه بعض الإخوة من مشائخ القبائل لجمع المال لمساعدة بعض القبائل على الثورة على الإمام أحمد ، ورأي آخر- كان- يتبنّاه بعض الساسة والتجار يرى أن اللبنة الأولى لتغيير النظام الإمامي تكمن في تعليم الأجيال القادمة ونشر المعرفة)). ومن التوجه الثاني كانت ((كلية بلقيس)) منبراً تعليمياً ليستوعب طلبة اليمن عموماً وخاصة من أهل الشمال الذين كانوا في أغلبهم لا يجدون مكاناً في مدارس مستعمرة عدن. وأما الأستاذ الحبيشي فقد اعتبرها ((رسالة)) حضارية من جهة وأنها ((أكثر من مؤسسة تعليمية)) من جهة أخرى.

وخلال سبع سنوات بين العامين (١٩٦١-١٩٦٨)م نجح الأستاذ الحبيشي في أن يجعل ((كلية بلقيس)) في مدينة الشيخ عثمان/عدن مستقبلاً منيراً لمئات العقول اليمنية التي لعبت لاحقاً أدواراً سياسية وإدارية مهمة في تاريخ الثورة اليمنية بجناحيها الشمالي والجنوبي . وكثيراً ما جرى في المذاكرات أنَ واحداً أو أكثر من خريجي كلية بلقيس كان موجوداً في الحكومات اليمنية المتعاقبة كافة (في صنعاء أو عدن).

وما بين العامين المذكورين (١٩٦١-١٩٦٨)م لم يقف الأستاذ الحبيشي عند هذه الريادة التعليمية الحديثة فقط وإنما استمر أيضاً في فكره القانوني والثقافي : وفي الصفحة (٢٢٢) يقول:

((لم أكن لأكتفي بتلك الحياة العامة المزحومة إذ كنت أنصرف ليلاً إلى هوايتي المفضلة وهي الكتابة فحررت بحوثاً عن ((اتفاق جدة)) و((معاهدة اتحاد الجنوب- تحليل ونقد)) و((قرارات الأمم المتحدة للعام ١٩٦٣م)) و((أحاديث تربوية)) و((اليمن في المحيط الدولي)) و((نزاع الحرب الموقوفة- مصر- إسرائيل)) و((المياه الإقليمية وجزيرة كمران)).. إضافة إلى كتابة القصة ..إلخ- راجع أيضاً الصفحة (٢٢٣) وما بعدها من الجزء الأول المذكور- طبعة وزارة الثقافة والسياحة- وهي الطبعة الثانية عام ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

5- محطة استقرار القلب (صنعاء): (1968-2007)م:

في العام ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م أصدر راحلنا القدير الجزء الثاني من سيرته الذاتية ((حط الرحال: محطات حياتي)) عن مركز عبادي للدراسات والنشر. وجاء الكتاب في أكثر من (٣٦٣) صفحة. واستهدف مؤلفه تغطية أهم أنشطته وأعماله للفترة (١٩٦٨-٢٠٠٧)م ، ولايفوتنا أن نقول إن العم حسين في كلا الجزأين من سيرته الذاتية حشد مئات الأسماء الذين زاملوه أو تعرف بهم أو حتى ترددوا على (مقيله الأسبوعي الشهير في منزله بصنعاء - كل خميس) . ولكن هذا الكتاب الثاني من سيرة حياته حمل (هندسة) مقصودة لبيان فلسفته في الحياة من جهة وجاء صورة ًمن نهجه العميق الساخر من جهة أخرى . ومن يقرأ هذا الكتاب يجد أسلوباً جديداً في كتابة المذكرات . فبعد كل نشاط أو عمل لصاحبه تجده يأتي بحكاية طريفة أو إشارة إلى مؤلف عربي أو أجنبي مع بيت شعر أو أكثر ليجلو ما صاغه عن هذه الجزئية أو تلك من حياته . ويستطيع المتأمل في كتابيه (محطات حياتي) و(حط الرحال) أن يقارن بين إهداءيه لهذين الجزأين من سيرته الذاتية ، وثمة فارق بينهما ولكن في الوجهة ذاتها التي أرادها من (الإهداء): أوله ((إلى الذين لا يدرون أني أودهم)) ثم ((وإلى الذين ساعدوني على ألّا أكرههم دون أن يدروا))- كما ورد في الجزء الأول ثم أصبحت الصيغة ((إلى الذين أعفوني من إقامة عداوات معهم)) وكذلك تحوّل ((المجتمع)) في الجزء الأول إلى ((الوطن)) في الجزء الثاني- وهذا مثال على الجدارة الفكرية المتجددة على الدوام في عقلية الراحل العظيم .

ولا نجيز لأنفسنا تلخيص كتابه الثاني ولكننا نعتقد أن هذا الكتاب أنموذج مدهش و(قطعة ذهبية)- أوكما يقول أهل الانجليزية(Master piece)- للمذكرات العربية . . وكما سيطر عليه نهج العلاقة بين الزمان والمكان في الجزء الأول من سيرته الذاتية - متأثراً بمدرسة عملاق الفكر الجغرافي د. جمال حمدان - نجده في الجزء الثاني (حط الرحال) عميقاً في قراءاته لتلكم العلاقة خاصة حين يعالج ويكشف المدن التي كان يعيشها ، وقد مرت إشارات إلى المدن التي عاش فيها قبيل العام ١٩٦٨م .

وبعيد انتصار أهل اليمن على (حصار صنعاء) في الأسبوع الأول من شهر فبراير/شباط من عام ١٩٦٨م وصل راحلنا الكبير إلى صنعاء بعد أنٍ مر بمدينة تعز. ولقد عاش وهو في صنعاء شهوراً من عام ١٩٦٨م في خضم الأحداث الصدامية الحزبية والعسكرية التي استمرت إلى النصف الثاني من العام المذكور كحالة (هزات إرتدادية) لزلزال حصار صنعاء الشهير.

وفي حوالي الخمسين الصفحة الأولى من كتابه الثاني قرأ صنعاء : التاريخ والحياة الاجتماعية بمعتقداتها وعاداتها وأيضاً حياتها الثقافية بقيمها وعوائقها مع الخلفيات السياسية اليمنية التي رأى ضرورة إنارتها في كل من صنعاء وعدن حتى أصبحت صنعاء في ربيع عام ١٩٦٨م ((المرسى الأخير لحياتي)) كما كتب هو نفسه في الصفحة ((٢٩)) من (حط الرحال). ومن الصفحة (١٠١) وما تلاها كتب الأستاذ توصيفاً دقيقاً للأوضاع السياسية في الديار اليمنية كلها وخاض في تقييم عادل لها مستخدماً بعض العبارات عن كل العهود السياسية اليمنية في شمال اليمن وجنوبه ؛ بداية بحكيم الثورة اليمنية وقاضيها الرئيس الجليل عبد الرحمن الإرياني (رحمه الله) مروراً إلى عهد الرئيس علي عبد الله صالح.

ولتسهيل فهم القارئين لكتابه عن أي نقدٍ ظاهر أو خفي كان يعرضه عن هذا العهد السياسي أو ذاك صاغ الراحل الكبير حكمة مدهشة لم يسبقه أحد إليها كما أعلم وهي :

((نحن اليمانيين بحاجةٍ إلى نقد أنفسنا . فالإنسان عندما يصبح قادراً على نقد نفسه حينذاك يفقد حيوانيته))- الصفحة (٦٣) من الجزء الثاني وكثيراً ما يلجأ إلى لغة ((البرقيات)) كما كان عليه إرنست همنغواي وبالتعيين في ((الشيخ والبحر)).

وفي الصفحة (٩٨) يقول :

((يرى بعض المراقبين أننا قد عشنا الأربعينيات في أحلام والخمسينيات في انقلابات والثمانينات في انكفاء وحتى الآن لا زلنا نشتم الزمن الرديء ونحن الرديئون)).

ويختم الصفحة السابقة بقوله :

((إذا كانت نزعة الإنسان للديمقراطية ممكنة فنزعته للظلم تجعل الديمقراطية ضرورة))- وهنا كأنه يرد على عبارات أخرى شهيرة تقول بسوء الديمقراطية وبأنَّ الأسوأ منها هو عدم وجودها . عباراتٌ منطلقاتها خاطئة ونتائجها أكثر خطأً منها . وكثيراً ما كرر قوله المهم عن أداء الدولة في هذا العهد أو ذاك ((في حاجة غلط)) وخاصة حين يتكلم عن تدهور الخدمات في اليمن وأنَّ العجائب في اليمن أكثر من سبع- يسردها في الصفحة (١٤٥) وما بعدها . وحين يسخر يقول:

((إنك تستطيع أن ترسل رسالة أو طرداً إلى آخر الدنيا من صنعاء ولكن لا تعرف كيف ترسل ما بين مدن وقرى اليمن)).

ولكن أعظم الأفكار التي أفنى عمره لبيانها في اليمن هي الدعوة إلى ((مشروع حضاري يمني للبحر))- راجع الصفحة (٣٥) من الجزء الثاني حيث يقول :

((أهمل اليمنيون وحدتهم وقوتهم البحرية . فكان البحر- مدخل الغزو- هو المغرم بدلاً من كونه مغنماً))- كما سبق له أن أنار ذلك في كتابه الرائد: ((اليمن والبحر الأحمر)).

ثم في الصفحة (١٤٩) من الجزء الثاني المقصود يكرر صرخته الأخيرة ويقول :

((وقد بحَّ صوتنا في الدعوة إلى مشروع بحري فيه استغلال شواطئنا وجزرنا..الخ)). ولعله من هذا الإخلاص العقلي العظيم لدى الراحل الكبير كنّا في عام ٢٠٠٠م قد أهدينا له بحثاً مقدماً للمجلس الإستشاري اليمني بعنوان ((رسالة في مستقبل اليمن البحري)) ، ولكن الألوان في الظلام لا تُرى والحقيقة حين تقال لغير أهلها مجرد ((كلام مثقفين)) و((ثرثرة على الورق)) لا حياة فيها.

وهنا علينا أن نتوقف أمام القارئ لنجلو خافياً من أسرار بلاغة الراحل العظيم الذي عاش ليقول بأنَّ اليمن دولة بحرية ومات بعد أن بُحَّ صوته وتواصوا على دفن مشروعه الرئيسي أو كادوا. ومن يقرأ الجزء الثاني ربما يكون قد توقف عقله عند العنوان الثاني الذي كان يريده لكتابه (حط الرحال) وهو (قطار الرماد)- كما ورد في الصفحة (١٩) من مقدمته للجزء الثاني من سيرته الذاتية ؛ ثم أعاد التذكير به في صفحات عديدة ربما من أبرزها ما ورد في الصفحة (٣٢٧) حيث يقول :

((وقد أسميت هذا الكتاب (قطار الرماد) لأنه آخر محطة في الحياة وقطار الزمان لم يعد يحمل سوى الرماد ! وإن كان الرماد في مكنونه قد يحوي بعض جواهر العطاء ولآلئ خبرة الزمان.. ومن سخرية الحياة أنك تغادرها حياً)). ياحسرة ً على العباد في اليمن حيث يموت فيها العمالقة وهم أحياء (أو وهم قادرون على العطاء) ولكن حين يدفنون الأحلام العظيمة أمامك يتحوّل قطار حياتك ((رماداً)) ..فتأمل يرحمنا ويرحمك الله ..

أيها اليمنيون هكذا كتب في عام ٢٠٠٧م الأستاذ حسين الحبيشي الذي كان يكفيه أنه المرجع القانوني الأول لصياغة دستورٍ وحدتكم مع آخرين عظماء لم يكشف غيره خطياً عن أسمائهم ومات وهو بلا قرارٍ جمهوري يقرر أنه فعلاً ((المستشار القانوني للجمهورية اليمنية)) كما كانت لعقود المنابر الحكومية اليمنية تكرره . ولكن لا عتب على من يعيش الحياة ليأكل أو ليسرق أو ليقتل أو حتى يرى الآخرين مجرد خُدام وسخرة ويوقظون «موظفيهم» بإشارةٍ ويتلهون بك مُتى أرادوك وبقول مثل أهلاً وسهلاً ((ياعم)) أو ((يا أستاذ)) ثم تطوى الصفحات من أمام كل الحاضرين إلا من رحم ربي ومن تصور أنه وكيل القدرة في الأرض كما يقال.

لقد استوقفنا طويلاً تأكيده المستمر في الجزء الثاني من سيرته أنه عاش نحو ثلاثة عقود بلا قرار جمهوري وأيضاً ضآلة راتبه بحسب القيمة النقدية لدرجة نائب رئيس وزراء التي كان عليها قبل عقود ، ولا أخفي القارئ الكريم أنني الآن أشعر بالخجل لأنَّ بعض الأسماء- ومنهم كاتب هذه الأسطر- قد صدر فيهم قرار جمهوري كأعضاء في لجنة التحكيم في الصراع اليمني الإريتري ولم يكن هو وغيره من رواد القانون بين هذه الأسماء. وكنت أعتقد أنَّ قراراً جمهورياً سابقاً قد صدر بأسمائهم . و كان الأستاذ حسين الحبيشي ((فقيه اليمن القانوني)) في أعظم المحاكم الدولية ويسمَى فيها ((وكيل الجمهورية اليمنية)) ؛ وكان يأتي دائماً أمام المحاكم الدولية بعد دولة الدكتورعبدالكريم الإرياني - رئيس اللجنة الوطنية للحدود وللتحكيم والذي هو بحق ((فقيه تحديث الدولة اليمنية)) ؛ بالإضافة إلى ذلك كان العم حسين رئيساً للجنة البحرية اليمنية في كل المفاوضات مع دول الجوار اليمني .

ورحم الله القاضي الجرجاني صاحب ((الوساطة بين المتنبي وخصومه)) القائل :

يَقُولون لي فيكَ انْقِبَاضٌ وإنَّمَا
رَأَوا رَجُلاً عَنْ مَوقِفِ الذلِّ أَحْجَمَا

إلى آخر هذه القصيدة المناسبة هنا لمن كانت ((عزَّة النفس)) جوهره الإنساني و((النظافة)) عنوانه و((حبُّ الآخر)) شعاره والثقافة البشرية والوطنية عمقه ومكنونه.

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن فقيد اليمن الغالي تعيّن نائباً لرئيس الوزراء للشؤون الخارجية والإقتصادية بالقرار الجمهوري رقم (٣٠) لسنة ١٩٦٩ م يوم ١٩٦٩/٤/٣ م ؛ وفي التعديل الثاني لحكومة شهيد اليمن ونبيل رجال السياسة : دولة الأستاذ عبدالعزيز عبدالغني صدر القرار الجمهوري رقم (٢٧) لسنة ١٩٧٩ م بتسمية العم حسين و(زيراً للدولة و المستشار القانوني لرئيس الجمهورية) يوم ١٩٧٩/٣/٢١ م ؛ وفي حكومة دولة الأستاذ الدكتور عبد الكريم الإرياني التي صدر بها القرار الجمهوري رقم (١٢١) لسنة ١٩٨٠ م تعيّن العم حسين رحمه الله فيها ليكون (مستشاراً قانونياً ووزير دولة) وذلك يوم ١٩٨٠/١٠/١٥ م .....كان ذلك قبل إعادة تحقيق دولة الوحدة اليمنية في ١٩٩٠/٥/٢٢ م . فتأمل ..

6- الحبيشي: ثروة لا تنسى وثروتان لا بدَّ من إنقاذهما:

والثروة الحبيشية التي لا يمكن أن تنسى فهي أعماله وجهوده القانونية والفكرية التي صنعها بإرادة صارمة في الفكر الدستوري من أجل إعادة الوحدةً اليمنية وتحديات الأعمال العدائية والقضائية التي واجهت اليمن بحرياً خلال العقدين السابقين.

أما الثروتان المهمتان اللتان يجب إنقاذهما فأمامنا ما يلي:

أولاً : يومياته : بدءاً من ربيع عام ١٩٦٨م حتى وفاته في يوم الخميس ٢٠١١/١٠/١٣م كان الرجل يسجل يوميات بشكل منظم ومستمر. وفي تقديرنا أنَّ هناك حوالي ثلاثة عشر ألف يومية أو أكثر في مكتبته. إضافة إلى ملخصات شهرية وكذلك سنوية كان يصوغ صفحاتها كما أخبرنا في الجزء الثاني من سيرته الذاتية.

وفي اليمن كما أعلم هناك شخصيتان فقط كانا بهذا التنظيم الصارم في كتابة اليوميات: الشيخ الجليل سنان أبو لحوم- آخر أقيال اليمن المستنيرين في العصر الحديث ثم المستشار حسين الحبيشي.

والثروة الثانية هي المكتبة الهائلة والمتنوعة والغنية في حقول المعرفة البشرية وباللغتين العربية والإنجليزية - وفي صدارتها حقل القانون (المحلي والإقليمي والدولي) إضافة إلى كم كبير من الوثائق والمحاضر و المذكرات التي كتبها أو علقً بقلمه فيها.

فهل ثمة أملٌ في عون إبنه طارق وصديق عمره الوفي فضل ردمان لبلورة مؤسسة أو إطار مؤسسي حي يُنقذ ثروات اليمن القانونية وأيضاً مؤلفاته ما صدر منها وما ينبغي أن يصدر.

لقد ((عاش معلماً ومات معلماً)) كما أوصى كتابته على قبره في الصفحة (٢٧٧) ثم الصفحة (٣٥٣) من الجزء الثاني المقصود.

وفي قلبنا أشرطة من كلام طويل متسلسل وحار ربما ترى النور في قادم الأيامً.

رحم الله أبا القانون الحديث في اليمن وألهم أهل اليمن على الدوام أن يكونوا أوفياءً((للعارفين)) من جهة وأتقياءً يخافون ((الزمان أو التاريخ)) من جهة أخرى ؛ كلما أرادوا لذةً من لذات الدنيا كان الوطن هو فنارهم وجوهر نهجهم . وهنا نعيد التذكير بشعار أمثالنا ((من لايخاف التاريخ لايخاف الله)) .

7- رسالة الحبيشي التي يجب أن تصل للسلطة والمعارضة في اليمن:

في الصفحة (١٦٩) من (حط الرحال) يقول الراحل الكبير الحبيشي :

((إنَّ أعداء الوحدة لو أدركوا مخاطر الإنفصال- حسب قول وطني - لتمنوا الموت ولو بجنون البقر! ولكن مفتاح النجاح الحق هو امتلاك عقول الناس وليس عواطفهم)).

وفي الصفحة التالية (١٧٠) علينا أن نتأمل في حكمه عن حوالي خمس وأربعين سنة من تاريخ النظام الجمهوري في اليمن حيث يقول:

((إنَّ المطلوب- في اليمن- هو بناء الدولة وعدم الإكتفاء ببناء السلطة)) .

و((كلما أتأمل صراع المعارضة مع الحكومة أتذكر لوحة (جويا) : رجلان يتصارعان فوق رمال متحركة كلما اشتدَّ صراعهما: غرقا)).

وحين لجأتُ إلى الإنترنت بحثاً عن اللوحة المقصودة وجدتُ أنه يريد لوحة الرسام الأسباني الشهير فرانسيسكو دي جويا (١٧٤٦-١٨٢٨) م التي عنوانها :

مبارزة الإثنين وبهراوتينCudgels) .) وقد تأملت في اللوحة ودهشت من القراءة الفنية العميقة التي وجدها رجل القانون الأول في اليمن ، وهي صحيحة ، ولكن بلغة أكثر عمقاً لأنه رأى فيها همَّه الرئيسي في الحياة : ونعني (اليمن).

فهل حان بناء ((الدولة)) في الديار اليمنية..؟.

nakhodah@hotmail.com

لدى تكريمه في مؤسسة العفيف ورفيقه الأديب والتنموي محمد انعم غالب مع الأستاذ احمد جابر عفيف